مجلة "آفاق فكرية"

ص. ص. 460 - 477

ر ت م د: 2353 - 0367

ر ت م د إ: 2602-5507

ملامح من شعر الإخوانيات للشاعر ابن زمرك الأندلسي الغرناطي (ت. 793هـ)

Features of the Brotherhood's poetry by the Andalusian poet Ibn Zamrak Al-Gharnati

عمار عبد الرّحمن إسماعيل أمبدة

جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلاميّة (السّودان)، ammanb059@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2023-08-06 **تاريخ القبول:** 2023-12-30 **تاريخ النشر:** 2023-12-30

ملخص:

تناولت هذه الدّراسة ملامح من شعر الإخوانيات للشّاعر ابن زمرك الأندلسي الغرناطي، وهدفت الدّراسة إلى أنّ الإخوانيات في شعره تحمل مضموناً لتوطيد العلاقات الاجتماعية للشّاعر مع الأقارب والأصدقاء من جهة، وإلى التّودّد لغرض كسب ودّ الأمراء والحكّام وعطفهم من جهة أخرى، وذلك من خلال الوقوف على بواعثه المتمثّلة في: الشّوق والحنين، والعتاب والتّودّد، والمراسلات والمجاوبات، والتّهنئة والألغاز. اتّبعت الدّراسة المنهج الوصفي الاستقرائي.

وخلصت الدّراسة إلى عددٍ من النّتائج من حيث مجملها: إنّ هذا اللّون من الشّعر انعكاس للعلاقات الاجتماعيّة الوطيدة، وللاستقرار الاجتماعي والحضاري الذي شهده المجتمع الأندلسي. توصي الدّراسة: بمزيدٍ من الدّراسات حول شعر الإخوانيات لدى شعراء آخرين.

كلمات مفتاحية: إخوانيات؛ زمرك؛ شعر؛ أندلسي؛ غرناطي.

Abstract :

This study dealt with features of the Ikhwaniyat poetry of the poet Ibn Zamrak Al-Andalusi Al-Gharnati. Represented in: longing and nostalgia, admonition and courtship, correspondence and responses, congratulations and riddles. The study followed the inductive descriptive approach.

The study concluded with a number of results in terms of their entirety: This color of poetry is a reflection of the strong social relations, and the social and civilizational stability witnessed by the Andalusian society. The study recommends: further studies on the Brotherhood's poetry of other poets.

Keywords: Brotherhood; clique; Poetry; Andalusian; Granada.

مقدّمة:

يُقصد بـ "الإخوانيات" أو "الأدب الأخواني" ما يتبادله الأدباء والكتّاب فيما بينهم من رسائل أو ما يجري بينهم من نوادر، ومداعبات شعرية، وما إلى ذلك. الإخوانيات مصطلح تداوله النّقاد، ودارسو الأدب لتعيين لون من ألوان الكتابة الشّعريّة والنّثريّة التّي تندرج في إطار المراسلات المتداولة بين الأصدقاء، والخلّان، أو في نطاق استحضار طِيب العيش معاً، وتذكّر أيّام الودّ والهناء، وتأكيد الوفاء لها والالتزام بمعهودها، وغير ذلك مما يتطارحه المتوادّون في مكاتباتهم، ويتوارد على قرائح الشّعراء من ذكرى الأصدقاء أو مجالس الأحباب.

وأدب الإخوانيات قد يأتي في قصائد مستقلة بذاتها، وهذا نادر في الشّعر عامة، وقد يتضمّنه مقطع في قصيدة، إلّا أنّه غالب في الرّسائل التي تستأثر بمعظم ما جاء منه في العربيّة، والتّي تتّسم بخصائص الأسلوب الرّائج في كلّ عصر، وبتناول الموضوعات المطروحة في كلّ بيئة لغويّة أو فكريّة أو أدبيّة، فضلاً عمّا يقتضيه المقام من بثّ الشّوق والحنين، وبعث الذّكريات، وتقديم المجاملات، وإبراز مقدرة الكتّاب على التّمكن من أداة التّعبير اللّغوي في النّثر كما في الشّعر وفي خزانة الأدب العربي تراثٌ قيّم من الإخوانيات تضافرت على إنشائه أقلام كبار أهل القلم في مختلف المراحل الغابرة والمعاصرة (ناصف، 1996، ص.4).

ومن هنا تقوم الدّراسة على تحديد مفهوم شعر الإخوانيات الذي ورد في شعر ابن زمرك الغرناطي. وتناول المضامين من خلال المادة الشّعرية التّي عبّرت عن هذا الموضوع، لذلك تلجأ الدّراسة إلى المنهج الوصفي الاستقرائي.

اشتملت الدّراسة على عدّة عناوين، خصّص الأول منها للحديث عن مفهوم شعر الإخوانيات، أمّا العنوان الثّاني: فقد تناول الشّوق والحنين. وتناول العنوان الثّالث: العتاب والتّودّد. أمّا العنوان الرّابع: فقد تناول المراسلات والمجاوبات. وأخيراً كان العنوان الخامس: الذي تناول التّهنئة والألغاز.

1. مفهوم شعر الإخوانيات:

شعر الإخوانيات هو فن من الفنون الشّعريّة التّي تتمتّع بخصوصيّة ومزايا معيّنة، فهذا اللّون الشّعري يتبادله الشّعراء والكتّاب بنوع من التّلقائيّة والعفويّة والتّي لا تخلو من السّخريّة الصّريحة أو الخفيّة، وهو غالباً ما يكشف الوضع الشّخصي للشّاعر ومزاجه وطبيعة علاقاته بالنّاس والبيئة، كما يعبّر عن دواخله التّي يسر بها إلى أصدقائه. وشعر الإخوانيات يدور حول "العلاقات الاجتماعيّة المتمثّلة بالصّداقة وعلاقات الأقارب والأخوة بين أفراد المجتمع، فهذا المصطلح مأخوذ من الأخوة التّي تجمع بين

آصرة الانتساب والقرب، وآصرة المحبّة والألفاة، والتّماثل في الطّباع، فتدور الإخوانيات حول عدّة مجالات مثل العتاب، والاعتذار، والشّكوى، والتّهنئة، والفكاهة، والألغاز"(الملا، 1412هـ، ص.5).

ومن ثمّ فإنّ الإخوانيات نوع من الشّعر يساعد على ربط العلاقات الاجتماعيّة إذ تصوّر" الصّلات والرّوابط التّي تربط بين الأصدقاء من الشّعراء، ويتحدّث هذا الشّعر بين سطوره عن الصّداقة والأخوة والمودّة" (الشّناوي، 2006، ص.1).

إنّ هذا اللّون من الشّعر انعكاس للعلاقات الاجتماعيّة الوطيدة، وللاستقرار الاجتماعي والحضاري الذي شهده المجتمع الأندلسي، فالإخوانيات " تتصل بحياة النّاس أوثق اتّصال، فهي تنبثق من العلاقات الاجتماعيّة، وتنهض بتصويرها وتدور حولها، وقد جاء الكثير منها ثمرة لظهارة الصّداقة التّي اتّسع مجالها في هذا العصر على نحو لم يسبق له مثيل، في ظل المجتمع المدني والحضري الذي تفيأ الشّعراء الأندلسيون ظلاله وعاشوا في كنفه، خلال حُقبه الطّويلة" (الشّناوي، 2006، ص.5).

إنّ الإخوانيات ظاهرة شعريّة ترتبط بالاستقرار الثّقافي والحضاري، فهي ظاهرة حضاريّة ثقافيّة، أسهم فيها الشّعراء من ذوي الثّقافة والمعرفة، حيث ترتبط بالنّشاط الثّقافي، والاستقرار الاجتماعي، لأنّ مطارحاته تتّسم بالودّ والألفة، والتّي تجري بين الأصدقاء من الأدباء المثقّفين (الشّناوي، 2006، ص.ص.1-2).

ومن هنا نجد الشّاعر ابن زمرك تأثّر ببيئته الثّقافيّة والأدبيّة، وبالأغراض الشّعريّة السّائدة في الشّعر الأندلسي ومنها الإخوانيات، فهي من الأغراض الشّعريّة التّي نظم فيها ابن زمرك. ولعلّ وجود هذا النّمط الشّعري عند شاعرنا فضلاً عن التّأثير بالسّائد من الشّعر آنذاك هو حاجة الشّاعر إلى توطيد العلاقات الاجتماعيّة مع الأقارب والأصدقاء من جهة، وحاجته إلى التّودّد لغرض كسب ود الأمراء والحكام وعطفهم من جهة أخرى، ويدلّ على ذلك ذوقه الحضاري ومستواه الثّقافي، فيعكس هذا النّمط من الشّعر الأسلوب الحضاري الرّاقي للشّاعر، والمتميز باللّين والموحي بامتلاك مهارة الاتّصال بالآخر، واتقان فن التّواصل. ومن أهمّ اتّجاهات الإخوانيات التّي اشتمل عليها شعر ابن زمرك الشّوق والحنين، والتّودّد والعتاب، والمراسلات والمجاوبات، فضلاً عن التّهنئة والألغاز.

2. الشّوق والحنين:

الشّوق والحنين من أعمق المعاني الإنسانيّة وأشدّها لصوقاً وعلوقاً بالنّفس. لذا يحنّ المرء إلى أحبابه وأصدقائه، ويشعر بالشّوق إليهم، لا سيّما عبر الشّعور بالغربة أو النأي عنهم. والحنين يدلّ على النّضج العاطفي والنّزعة الإنسانيّة الصّادقة. فيقول الجاحظ في هذا الشّأن: "من علامة الرّشد أن

تكون النّفس إلى مولدها مشتاقة، وإلى مسقط رأسها توّاقة، وقالت الهند: حرمة بلدك عليك كحرمة أبويك- لأنّ غذاءك منهما وأنت جنين- وغذاءهما منه" (الجاحظ، 1982، ص.8).

إنّ الحنين والشّوق من أهمّ موضوعات الشّعر الإخواني، فممّا" يلحق بشعر الصّداقة، شعر يتحدّث فيه الشّعراء عن الحنين إلى بعضهم، ومبعث هذا الحنين يتمثّل في ظروف الاغتراب عند الأهل والوطن، فيترتّب عن ذلك الإحساس بفقد الأصحاب، ممّا يدفع الشّعراء إلى التّراسل تعبيراً عن هذه المعاني" (الموصلي، 2005، ص.173). لقد اشتملت قصائد ابن زمرك على كثيرٍ من شعر الشّوق والحنين، فقد عبّر عن لوعته وحنينه بسبب الغربة والابتعاد عن الموطن والأهل، فمن القصائد التّي تعكس المعاني موشّحته التّي يقول فيها مفصحاً عن شوقه وحنينه إلى أهله بمدينته (غرناطة): (ابن زمرك، 1997، ص.ص.533- 534) من [مخلّع البسيط]

أَبْلِغْ لِغَرْنَاطَةِ السّـــلامْ وَصِفْ لَها عَهْدِيَ السّلِـــــيمْ
فَلَـــوْ رَعَى طَيْفُهَا ذِمامْ مَا بِتُّ في لَيلَةِ السَّلِـــــيمْ
يَا جِيرةً عَهْدُهُم كَريـمُ وَفِعْلُهُم كُلُّهُ جَميلْ
لا تَعْذِلُوا الصَّبَ إذ يَهِيمُ فَقَبلَهُ قَد صَبَا جَميلْ
القُربُ مِنْ رَبعِكُم نَعيمُ وَبُعْدُكُمْ خَطبُهُ جَلِيلْ
كَمْ مَنْ رِياضٍ بِـــهِ وَسَامِ يُزْهَى بِهَا الرّائدُ المُسِيـــمْ
غَديـرُهَا أزْرَقُ الجِمـــامِ وَنَبْتُهَا كُلُّـــهُ جَمـيـــمْ
أعِنْدَكُمْ أنَّنِي بِفَـاسٍ أُكَابِدُ الشَّـوْقَ والحَنِينْ
أَذْكُرُ أهْلِي بِهَا وَنَاسِي واليومُ في الطَّولِ كالسِّنِينْ
الله حَسْبِي فَكَم أُقَاسِي مِنْ وَحْشَةِ الصَّحْبِ والبَنِينْ
مُطَارِحاً سَاجِعَ الحَمَـــامِ شَوقاً إلى الإلفِ والحَمِيـــمْ
والدَّمعُ قَدْ لَجَّ فِي انْسِجَـــامِ وَقَدْ وَهَى عِقْدُهُ النَّظِيـــمْ

إنّ أبيات المُوشّحة تفيض بعاطفة الشّوق والحنين إلى أهله وأبنائه وجيرانه وأصدقائه، ولعلّ ورود حرف النّداء (يا) في الدّور بعد مطلع المُوشّحة، دليل على شدّة شوقه وألم لوعته، فنادى جيرانه وأهله وأصدقاءه وأبناءه بكلّ حسرة وأسى إلى مكان الطّفولة والأصل، حيث مظاهر الطّبيعة من الرّياض وغدران المياه وسجع الحمام...هي ما تتميّز به مدينته (غرناطة). ومدينة غرناطة كما قال عنها ابن بطّوطة (ت. 779هـ) لمّا زارها: "قاعدة بلاد الأندلس وعروس مدنها وخراجها لا نظير له في بلاد الدّنيا،

بها الكثير من الأنهار والبساتين والجنّات والرّياض والقصور" (ابن بطوطة، 1987، ص.684) وقال عنها وزيرها وكاتبها لسان الدّين بن الخطيب (ت. 776هـ) مُفضّلها على دول العلم العربي الشّهيرة: (المقري، 1968، ص.148)

غرنَاطةٌ ما لهَا نَظِيرٌ مَا مِصْرُ ما الشَّامُ ما العِراقُ
مَا هِيَ إلّا العَروسُ تُجْلَى وتِلْكَ من جُمْلَةِ الصَّداق

ويبدو من سيرة الشّاعر ابن زمرك أنّ هذا الفراق حصل بفعل سفره إلى مدينة "فاس" بالمغرب، لأمورٍ سياسيّة تَخُصُّ مكانته في الدّولة ألا وهي "الوزارة" (ابن زمرك، 1997، ص.13). لقد بُلي الشّاعر- كما ورد في الموشّحة- بشدّة الهجر، فلم يتسنَ له أن يعرف قدر القرب منهم حتى ابتلى بالفراق. ويحاول الشّاعر أن يخفّف من شدّة ألم الحنين واللّوعة إلى أهله وبيت طفولته بالالتفاف إلى الماضي، وبما فيه من ذكريات جميلة في أيّام الوصال والتّلاقي قبل الفراق. وهكذا تظهر في هذه المُوشّحة العاطفة الجيّاشة التّي تعكس ألم النّوى والغربة عن الأهل والأصدقاء، والشّوق إلى الماضي وبيت الطّفولة.

ويبدو أنّ الظّروف الاجتماعيّة والعلميّة والإداريّة والسّياسيّة قد دفعت بالشّاعر أن ينتقل من مدينة إلى أخرى تاركاً مكان طفولته وصباه، ممّا هيّج شوقه وحنينه إلى هذا المكان، فها هو يحنّ إلى "قصر الحمراء" بغرناطة وإلى أهله وأحبابه، بقصيدة يقول فيها: (ابن زمرك، 1997، ص.158) من [الوافر]

سَلامُ الله يا قَصْرَ السَّلَامِ على أرجائِكَ الغُرِّ الوِسَامِ
فَكَمْ رَوْضٍ بِرَوْضِكَ لِلأمانِي يَنِمُّ بِعَرْفِهِ زَهرُ الكِمامِ
وكَم غُصنٍ لِقدٍّ ذِي قوامٍ وكم ثَغرٍ لِزَهرٍ ذِي ابتسامِ
إذا ضَحِكَتْ ثُغُورُ الزَّهرِ فِيهَا تَبَاكَى فَوقَهَا زَهرُ الغَمامِ
مَطالِعُ مُجْتَلَى نُورٍ وَنَوْرٍ تُدِيرُ شُمُوسَهَا شَمسُ المُدامِ
مَعَاهِدُ جِيرتِي وَمَرَادُ أُنسِي وغُصنُ شَبِيبَتِي لَدْنُ القَوامِ
تَقَضَّى أُنسُهَا ومَضَى شَبابِي فَكانَا مِثلَ أحْلامِ المَنَامِ
سَأُتْبِعُهَا وإنْ حَمَلَتْ فُؤادِي بِدَمْعِيَ والتَّرَحُمِ والسَّلامِ

إنّ عاطفة الحنين- كما يبدو- هي الطّاغية على هذه الأبيات. وتبرز شدّة الشّوق والحنين للشّاعر من خلال تشبّثه بأسماء الأماكن (قصر، معاهد...)، فتذّكر تفاصيل الأماكن في زمن الشّباب واللّهو دليل على شدّة الحنين واللّوعة. كما أنّ توظيف الشّاعر لـ"كم" الخبريّة: (فكم روضةٍ، وكم غصنٍ، وكم

ثغرٍ) يُوحي بكثرة هذه الأجواء الطّبيعيّة الممزوجة بالغزل والتّي يحنّ إليها الشّاعر. ويضفي الشّاعر جمالية على ذكرياته السّالفة من خلال تركيب صورتين شعريتين فجعل لتشخيص عناصر الطّبيعة وأجوائها العليلة التّي توحي إليه بأنّها جنة نعيمه، دلالة على الحبّ والخير والخصب والعيش الرّخي، كما رسم لصباه صورةً للفترة الجميلة التّي عاشها في شبابه وأنسه مع الأهل والأصحاب حينما رسم له إنقضاء الأنس ومضي الشّباب اللّذَيْنِ كانا مثل أحلام المنام. ويختم الشّاعر هذه الأبيات بالأسلوب الذي يعبّر عن الحسرة والقلق المشوب بالتّمني والاستحالة تجاه ماضٍ جميل لن يعود.

ولم يقتصر شعر الحنين والشّوق عند ابن زمرك على الحنين إلى الماضي أو الأهل أو الأصحاب، بل التفت الشّاعر إلى ذكر" الطّلل" لعيبر عن حنينه وشوقه إلى ما تبقّى من آثار ديار الأحبة، يقول: (ابن زمرك، 1997، ص.ص.199- 200) من [البسيط]

إنّ الطُّلُولَ يُجِدُّ الوجدَ عَافيهَا فَليُعْفِ نَفسَكَ مِنهَا مَنْ يُعَافِيهَا

تُهْدِي إلَيَّ نُحُولاً كَيْ تُحَيِّلَنِي فَأَنْثُرُ الدُّرَّ مِنْ دَمعِي أُكَافِيهَا

وَقَفْتُ مِنهَا عَلى حَالٍ أَسِيتُ لَهَا والسُّحُبُ تَمْنَحُهَا والرِّيحُ تَسفِيهَا

لَمْ يَبْقَ مِنهَا سِوَى نَؤْيٍ مُجَثَّمَةٍ تُبِينُ عَمَّنْ ثَوَى فيها أثافِيهَا

رِفْقاً بِقَلبِيَ يَا دَارَ الهَوَى فَبِهِ صَبَابَةٌ مِنكَ تُخْفِيهِ وَأُخْفِيهَا

تظهر في هذه الأبيات الألفاظ الزّاخرة بالألم والحزن بعد وقوف الشّاعر والبكاء على الأطلال متذكراً تلك الأيام الجميلة التي جمعته مع الحبيب، على عادة الشّعراء القدماء الذين افتتحوا قصائدهم بالوقوف والبكاء على الأطلال بعد أن عفت أو كادت آثارها أن تمحى بسبب ما فعلته السّحب والرّياح بديار الأحبة بعد رحيلهم، ولنلمس وقوف الشّاعر على ما تبقّى من آثار ديار الأحبة فوقف بحالةٍ فيها أسى ولوعة وشجن بسبب طمس معالمها التّي لم يبق منها سوى أماكن تجمّع المياه والحجارة.

وخلاصة ممّا سبق يمكن القول بأنّ الشّاعر ابن زمرك قد نظم شعراً وفيراً في الشّوق والحنين، إفصاحاً عن لوعته واشتياقه لأماكن صباه ولماضيه ولأهله ولأصحابه ولأحبابه ولديارهم، فكانت العاطفة الجيّاشة الصّادقة هي الطّاغية على هذه الأشعار.

3. العتاب والتّودّد:

يعدُّ العتاب نمطاً من أنماط الشّعر الإخواني، حينما يخاطب الشّاعر الآخر ويراسله معاتباً إيّاه، طالباً ودّه وعطفه. والعتاب بمعنى اللّوم، ويلجأ الشّاعر إليه بسبل عدّة، وطرائق مختلفة، فقد يمزجه بطلب العطف والمودّة، أو يدخله بالاحتجاج واللّوم وطلب الانصاف (بكري، 1980، ص.42).

لقد أزدهر هذا النّمط الشّعري في العصر الأندلسي وغيره من العصور الأخرى، بسبب التّطورات التّي حدثت في ذلك العصر، وحاجة المجتمع إلى الاحتكاك والتّخالط لتنظيم علاقاتهم. وثمة أسباب عدّة تدفع بالشّاعر إلى العتاب، ولعل من أهمّها الفراق والبين والهجر، أو الانتقاد، أو قلّة المراسلة والتّواصل، ومن جملة الأسباب المهمّة التّي دعت إلى نظم العتاب عند الشّعراء إهمال التّراضي، أو دفع الهدايا والعطايا من قبل الأمراء والحكّام. وجدير بالذّكر أنّ العتاب هو نتاج الشّعور بالغضب، أو عدم الرّضا من الآخر، وهو غضب مشوب بالدّلال (بكري، 1980، ص.9).

لقد تضمّن العتاب والتّودّد شعر ابن زمرك معاتباً الأصدقاء أو الأمراء والحكّام، فحاول مراسلة الآخرين شعراً ليعبّر عن عدم رضاه أو لومه من الشّخص المرسل إليه، وذلك بأسلوب مجامل ورقيق، ينم عن تفتّحه الفكري وذوقه الحضاري، الدّاعي إلى تقوية علاقات الودّ والمحبّة مع الآخرين، ومعاتبتهم في إطار أسلوب رقيق، يعكس تمدّنه وتحضّره، بغية الحفاظ على تلك العلاقات الاجتماعية، لا سيّما مع ذوي النّفوذ والسّلطة والجاه، حفاظاً على وضعه الاجتماعي، وضماناً لنيل دعم الأقوياء من ذوي السّلطة ومساندتهم. وقال معاتباً أحد الأصدقاء من الوزراء: (ابن زمرك، 1997، ص.ص.172- 173) من [الطّويل]

أُعيذُكَ مِن ظَنٍّ يُرجَّمُ كاذِباً وَغيرُكَ مَنْ يُصغِي لِزُورِ كِذابِ
وحَاشَايَ أن أزْرِي بِقدرِكَ بَعدَما عَلِمتُ شَريفَيْ حِلْيةٍ ونِصابِ
ولكنّ هَذي رَجَّمَتْنِي ظُنُونُها وشَبَّتْ على قَلبي أُوَارَ عِتابِ
وَقد نَثعلَتْ مِنها الكِنانَةُ أسْهُماً عِقاباً على قَلبٍ بِهِنَّ مُصابِ
إليكَ أبا عبد الإلاهِ رَفَعتُها شِكَايةَ خِلٍّ رَاضِياً بِعِتَابِ
بِعيشكَ كَم تَشكُو أُناساً عَلِمتهُم جُسُومَ بِغالٍ في حُلُومِ ذئابِ
يَرُوقُكَ مَرأى آدمِيٍّ وقَدْ غَدا يَهيجُ بِنَبْحٍ أو يَعضُّ بِنابِ
وإنَّكَ إن أمسَى مَزَارُكَ نائياً لأكرَمُ خِلٍّ أصطَفِي وأُحابِي
وَوُدُّكَ وُدٌّ لَو تَحلَّتْ بِنُورِهِ شَوارِقُ أُفقٍ ما اشْتَكَتْ بِغيابِ

لقد وظّف الشّاعر في بداية هذه الأبيات صيغة من صيغ المضارع (أعيذك) أي: أعيذك بالله، للإفصاح عن دهشته وتعجّبه من موقف المرسل إليه السّلبي كونه ظن فيه رجماً بالغيب من قبل الوشاة، مقابل موقف المرسِل (الشّاعر) الإيجابي اتّجاه المرسل إليه، (وهو أحد الأصدقاء من الوزراء). كما نلحظ بأنّ الأسلوب الحكيم قد طغى على الأبيات، ويدلّ على ذلك براعة الشّاعر في اقتناء الأسلوب

الملائم للموقف، إذ يخاطب صاحبه الوزير ويشكو إليه هؤلاء الوشاة الذين ظنّوا به السّوء اتّجاهه من غير دليل، وهؤلاء أي: "الوشاة" لا تعجبك أجسامهم وأقوالهم، فشبّه أجسامهم بأجسام البغال، وشبّه أقوالهم القبيحة بالنّبيح المصحوب بالعضّ. وعاتب الوزير بأنّ هذا الظّن السّيء من قبل الوشاة وقع على قلبه كالسّهم، وشبّ عليه كالنّار. وخاطب هذا الوزير بأنّه يتّصف بالأخلاق السّمحة، وبالعفّة والمنزلة الرّفيعة، وهو بذلك لا ينتقص من قدره حتّى ولو كان بعيداً عنه؛ لأنّه اصطفاه خليلاً وحبيباً، ممّا يستدعي أن يكون لبقاً في أسلوبه، حكيماً في عتابه ولومه، ليحصل على ودّ المخاطب ويتجنّب كلام من أوشى فيه ظلماً، فمثلاً بدلاً من أن يتّهم الوزير بأنّه يستمع للوشاة رفع منه هذه التّهمة ونسبها لغيره كما في قوله: (وَغيرُكَ مَنْ يُصغِي لِزُورِ كِذابِ)، كما يظهر هذا الأسلوب اللّبق في نهاية الأبيات حينما عضّض الشّاعر على المخاطب ودّه. ومن الأمثلة الأخرى على شعر العتاب والتّودّد عند ابن زمرك أبياته التّي كتبها مجيباً إلى بعض الفقهاء عن عتبٍ، يقول: (ابن زمرك، 1997، ص.216) من [الوافر]

صَفِيُّكَ ما عَلِمتَ لهُ وِدادٌ مُصافٍ لا يَشُوبُ ولا يَذُودُ
وَوُدُّكَ عِندهُ وُدٌّ أصيلُ وَعَهدُكَ عِندهُ عَهدٌ حَميدُ
وَمِثلِي لا تُغَيِّرُهُ اللّيالِي وغَيرِي بالخِيانَةِ مَن يَسودُ
ومَا غُمستَ يَميني في عُقوقٍ وَلا تِلكَ الحُقوقُ لَها جُحودُ
ولَكن حِفظُ عَهدِكَ عَارَضَتْهُ ذِمامٌ لا تُضَاعَ لَها عُهودُ
وجَاهي طوعُ حُكْمِكَ عن تراضٍ وإنّي حَيثُ شِئتَ كَمَا تُريدُ
بَناتُ الفِكرِ مِنكَ إذا تَجلَّتْ يُقِرُّ بِفضلِهَا حتّى الحسودُ

يلحظ في هذه الأبيات محاولة الشّاعر كسب ودّ المخاطب ورضاه، عبر عتاب مباشر صرّح به، فبمجرّد الإشارة إلى عدم علم المخاطب بصديقه المخلص في حبّه له (صفيُّك ما علمت له وداد) نستشف لوم الشّاعر وعتابه للمخاطب. وممّا أسهم في إضفاء لغة الودّ واللّين على الأبيات توظيف الشّاعر للألفاظ الدّالة على المودّة والحب، وحفظ العهد، وعدم الخيانة، والطّوع والرّضى عن الحكم، والمديح اتّجاه الآخر: (ودّك، حفظ عهدك، وغيري بالخيانة من يسود، طوع حكمك عن تراضٍ، بنات الفكر منك...) محاولةً لإصلاح ما خسر من العلاقة والتّرابط، لتغيير حالة هذه العلاقة من عدم علم المخاطب بصديقه المخلص في حبّه له إلى الودّ والتّواصل، لنستنتج من أن هدف هذه الرّسالة الإخوانيّة الشّعريّة هو التّقارب بعد التّنافر، والمودّة بعد العداء، تحقيقاً لمآرب الشّاعر (المرسِل) الاجتماعيّة والمعيشية. وقال في مَعْرِضِ العتاب: (ابن زمرك، 1997، ص.ص.236- 237) من [الكامل]

الله يعلمُ أنَّني إنْ أصْبَحتْ نَفسي اللَّجُوجُ كَثِيرةَ الإسرافِ
ما سِرتُ في الأصحاب إلّا سِيرةً مَشْمُولةَ الأوصافِ بالإنصافِ
فَلَرُبَّ مَنْزُورِ النَّباهةِ عاطلٍ ما إنْ لِدَاءِ ضَياعِهِ من شافِ
أقْطَعْتُهُ جَاهِي وشِدْتُ بِذكرِهِ وخَصَصْتُهُ بِعوارفِ الألطافِ
وعَصيتُ فيهِ عَواذِلِي وكَسَوتُهُ بُرْدَ الوَجَاهةِ ضَافِيَ الأعطافِ
لَمْ أبْغِ مِنهُ جَزاءَهَا وكَفاءَهَا ما كنتُ أبغي منهُ غير كَفافِ
فإذا بهِ يَنْتَاشُ عِرْضِيَ جَاهِداً ويظُنُّ إتْلافِي بِغيرِ تَلافِ
كلّا فإنَّ الله عَودَّ عَبدَهُ يَتلُو قوادِمَ لُطْفِهِ بِخَوافِ
آليتُ لا تَنْفَكُّ بَعدَ مَوَدَّتِي وَقفاً على الحُسَبَاءِ والأشرافِ

ويظهر في الأبيات أعلاها أنّ الشّاعر أفصح عن لومه من أذيّة المخاطب الذي يعمل جاهداً في تناول عرضه وذلك ظنّاً وتعمّداً منه لعدم تدارك أخطائه وإفشائها بين النّاس، على الرّغم من ثناء الشّاعر له بالمنزلة الرّفيعة، والألطاف الحسنة، والمكانة العالية، ولا يريد منه في هذا الثّناء جزاءً ولا كفافًا أي: "رزقاً" وذلك بأسلوب لبق وليّن يوحي بالذّوق الرّفيع والحضاري للشّاعر، واصفاً نفسه بأنّها ليست كثيرة الإلحاح والإسراف، بل يسير مع الأصحاب سيرة مشمولة الأوصاف بالإنصاف، أي: "العدل" ويختم الشّاعر هذه الأبيات بلفظ " آليت" أي: أقسمت، فهو يقسم على عدم ترك مودّته للمخاطب بالرّغم ما بدر منه من معاملة سيّئة. فجاء الخطاب الشّعري طلباً للودّ والإفصاح والتّقرّب.

وأخيراً فإنّ قصائد العتاب والتّودّد خصّصها الشّاعر للحكّام والفقهاء والأصدقاء، دون غيرهم من فئات المجتمع، إذ وظفّ هذا النّمط من الشّعر الرّسائلي للحفاظ على علاقات قويّة ومتينة مع ذوي السّلطة والجاه، ضماناً لحقوقه المعنويّة.

4. المراسلات والمجاوبات:

هي لون آخر من ألوان الشّعر الإخواني، تدور حول المراسلة شعراً، حينما يتبادل الشّاعر مع صديق أو شخصيّة في السّلطة الرّسائل، ويصفها، أو يرد عليها. ليصبح الشّعر بديلاً عن النّثر في تبادل الرّسائل بين الأصدقاء والأصحاب والمعارف. وتمتاز هذه الرّسائل الشّعريّة بالبساطة واللّغة السّهلة القريبة من لغة النّثر، ومع سعة مجال توظيفه لكلّ فئات المجتمع وطبقاته، إذ "ترجع أهميّة هذا التّراسل الشّعري إلى ما له من دلالة فنيّة، لما يمتاز به أسلوبه من السّهولة واليسر، وبعده عن التّكلّف

والتّزوير العاطفي، واشتراك جميع الطّبقات فيه، من الملوك والوزراء وعامة الشّعراء" (زغلول، 1990، ص.163).

لقد وظّف ابن زمرك هذا اللّون من الشّعر في قصائده، إما على شكل رسالة موجّهة إلى شخصيّة معيّنة، لأمرٍ ما ولمناسبة محدّدة، أو على شكل رسالة جوابية، للرّد على رسالة أو كتابة موجّهة إليه من قبل الآخر، وقد ترد هذه المراسلات على هيئة وصف للرّسائل الواردة. فمن الأمثلة على هذا اللّون من الشّعر الإخواني أبيات للشّاعر كتبها إلى شيخه وأستاذه الشّاعر "لسان الدّين بن الخطيب" فيقول: (ابن زمرك، 1997، ص.482) من [الطّويل]

أزُورُ بِقلبِي مَعهدَ الأُنْسِ والهَوى وأنْهَبُ مِن أيدِي النَّسيمِ رَسائلَا

وَمهْمَا سَألتُ البَرقَ يَهْفُو مِنَ الحِمَى يُبَادِرْ به دَمْعِي مُجِيباً وَسائلَا

فَيا ليتَ شِعرِي والأمانِي تَعَلُّلٌ أيرعى لِي الحَيُّ الكِرامُ الوسائلَا

وهَلْ جِيرتِي الأُولى كَما قد عَهِدْتُهُمْ يُوالُون بالإحسانِ من جاءَ سائلَا

إنّ السّهولة واللغة التّقريرية ظاهرة على هذه الأبيات، لتنسجم مع موقف الشّاعر وحالته، وطبيعة هذا اللّون الشّعري المخصّص للمراسلة بين الأحباب والأصدقاء. كما نلمس فيها روح البكاء والشّوق والحنين للأصدقاء والأحباب– خصوصاً- أيّام الأنس والهوى، لا سيّما أنّها نظمت في هذه الأجواء. وقد وظّف الشّارع في هذه الأبيات أسلوب الاستفهام "أيرعى لي الحيُّ- وهل جيرتي الأولى" للإفصاح عن شدّة شوقه وحنينه للأصدقاء والأحباب. كما نستنتج من نوع الشّعر وأسلوبه ومن سياق نظمه بأنّ هذه الأبيات قد قيلت ارتجالاً، لذا اتّسمت بالمباشرة والتّقريريّة، إذ " جنحت لغة الشّعر الإخواني إلى لغة النّثر، فاتّسمت بالنّزعة الخطابيّة والمباشرة والتّقريريّة والرّكاكة، ويرجع ذلك إلى أنّ بعضاً من موضوعات هذا الشّعر مثل المراسلات والمجاوبات كانت تعتمد على البديهية والارتجال، ممّا أدّى إلى تميّز لغة الشّعر بالبساطة والسّهولة، فاقتربت بذلك من لغة الحياة اليوميّة، وافتقرت إلى الإيحاء والتّعبير والانفعال". إذاً كتبت هذه المقطوعة الشّعريّة ارتجالاً إلى أحد الأصدقاء، لتظهر لنا الحالة الاجتماعيّة لهذا العصر، إذ ساد مجالس الأنس والهوى، وأجواء المرح، لتعكس الاستقرار الحضري وحياة الرّفاهة والتّمدّن، والعلاقات الاجتماعيّة المتينة بين الأحبّة والأصدقاء. لقد خصّص الشّاعر ابن زمرك بعضاً من شعره الإخواني للرّد على صدر رسالة واردة إليه من أحد الأصدقاء، وذلك في قوله: (ابن زمرك، 1997، ص.ص.221-222) من [الطّويل]

إذا غَابَ عن عَينِي الحبيبُ تَفَجَّرَتْ دُمُوعِي كأنَّ العَينَ تَغْرُفُ مَنْ عَينِ

وأمْلَتْ صِحاحَ الجَوهَرِيّ مَدَامعي كما اسْتَظْهَرَتْ مِنْ بَعدُ مُخْتَصَرَ العَينِ

سأُتْحِفُهُ مِنْ سَبْكِ فِكري بِقِطْعَةٍ تَنُوبُ لهُ قدراً عن الذَّهَبِ العينِ

وهَذَا كتابِي مِيمُه فَمُ لاثِمٍ وقد نَاب عن عَيني بِما فِيهِ مِنْ عَينِ

وإنْ ألِفٌ واللّامُ فِيه تَعانَقَا فَذاكَ عِناقٌ لِي تَقَرُّ بِهِ عَيني

وأبْقَى سَوادَ الحِبرِ فَوقَ بَياضِهِ بِهِ أثراً يُغْنِيكَ مِنهُ عنِ العَينِ

وقالَ إلاهُ العَرشِ أعْيُنَ حُسَّدٍ ومِنها التّي تُعْزَى إلى الشَّمسِ مِنْ عَينِ

لقد صوّر الشّاعر في هذه الأبيات التّأثير الإيجابي للرّسالة الواردة إليه من أحد أصدقائه، تعبيراً عن شدّة تعلّقه بهذه الشّخصيّة، وكثرة محبّته وشوقه له بعدما ابتعد عنه. إذاً كتبت هذه الأبيات لتظهر لنا الحالة الاجتماعيّة للشّاعر في بثّ الشّجون واسبال الشؤون في غياب الصّديق الحبيب، حيث صوّر نفسه باكياً بحرقة على غياب هذا الصّديق، وأنّ عيونه تفجّرت دموعاً مثل عين الماء في هذا البكاء، ولا يكتفي الشّاعر بهذا فقط، بل أنّ دموعه المنهمرة ملأت قاموس الصّحاح للجوهري وكتاب العين للخليل بن أحمد، ومختصره للزّبيدي، كناية عن كثرة البكاء. ومن مؤشرات هذه الغبطة وتلك المشاعر المبهجة للشّاعر المرسَل إليه إشارته في المقطوعة إلى تقبيل رسالته: "وهَذَا كتابِي مِيمُه فَمُ لاثِمٍ" حباً وتقديراً لصاحبها الموجّه إليه. وأردف هذه المبادرة العاطفيّة بدعاء للصّديق بأنّ الله سبحانه وتعالى يحفظه من عين الحسود، وهذا الدّعاء يوحي بشدّة الشّوق واللّهفة لرؤية الحبيب مرّة أخرى بعد غيابه: "وقالَ إلاهُ العَرشِ أعْيُنَ حُسَّدٍ". ونلمس في هذه الأبيات رقّة الأسلوب وغلبة المجاملة عليها، تأثّراً بالحالة الاجتماعيّة في هذا العصر، إذ سادت العلاقات الاجتماعيّة المتينة بين الأصدقاء والأحبّة.

ويلاحظ في الأبيات أعلاها لزوم ما يلزم في آخرها، فكلّها تختم بكلمة" عين". الأولى بمعنى "عين الماء" والثّانية" كتاب العين للخليل" والثّالثة "الخالص من الشّيء" والرّابعة "الحرف الهجائي العين" والخامسة "العين الباصرة" والسّادسة "البقية" والسّابعة "عين الحسود". وكلّها تحمل دلالاة لمكانة الصّديق الرّفيعة في قلب الشّاعر.

ولم تقتصر المراسلات الإخوانيّة عند ابن زمرك على نظم رسالة شعريّة صادرة أو الرّد على صدر رسالة واردة، بل نجد عنده رسائل شعريّة جوابيّة (مجاوبات) نظمت في مناسبات وأحداث معيّنة، وذلك مثل أبياته التّي يقول فيها: (ابن زمرك، 1997، ص.201) من [البسيط]

أحْيَيتَ يَحيى فُؤاداً بَينَ أضْلُعِهِ مَودَّةً لكَ أُصْفِيهَا وأضْفِيهَا

لَمْ تَبْدُ مِنكَ للذي وُدٍّ مُكاتَبَةٌ إلّا وأنتَ بِلا مَنٍّ مُقَفّيهَا

إنّي نَفثتُ وقد كانت مُعَاتَبتِي تطُولُ لو لا لُزومٌ فِي قَوافِيهَا
فإنْ أكُن لَمْ أُصِبْ مَعنَى الكَمالِ بهَا فإنَّنِي فِي قُصُورٍ لا أُنَافِيهَا
إذا البلاغةُ أضْحَتْ وَهِيَ مُهمَلَةٌ فأنْتَ كَفِلُهَا حَقًّا وَكَافِيهَا

إنّ هذه الأبيات هي رسالة جوابية من الشّاعر إلى الفقيه أبي زكريا يحيى بن خلدون (ت. 780هـ) الذي لعب دوراً في السّياسة والإدارة في المغرب وكان في بلاط السّلطان أبي سلم سلطان فاس ثم في بلاط أبي حمّو بتلمسان (ابن زمرك، 1997، ص.199). حينما كتب الأخير رسالة عتاب إلى الشّاعر عن تأخُّر كُتُبِهِ. إذاً جاء هذا الشّعر الإخواني المتمثّل بالرّسالة الجوابية شعراً ليعبّر فيه الشّاعر ابن زمرك على يحيى بن خلدون بأنّ مودّته له خالصة وزائدة، وأنّه كتب هذه الرّسالة مجاوباً فيها لكي لا تطيل معاتبته، فإن لم يصل فيها إلى المعنى المراد، وهو: "أنّ الطّرف الآخر إذا لم يكفّ عن عتابه" يعدّ هذا تقصيراً منه. ونلحظ استهلال الأبيات بأسلوب " أحييت يحيى فؤاداً..." ليدّل هذا الأسلوب على المكانة العالية ليحيى بن خلدون في نفس الشّاعر، كونه كان فقيهاً عالماً بليغاً.

وأخيراً نقول: إنّ المراسلات والمجاوبات الشّعريّة أسهمت في تنظيم العلاقات الإخوانيّة بين الشّعراء والآخرين. وكانت تلك الرّسائل الشّعريّة قريبة إلى النثّر بأسلوب تقريري، يميل إلى لغة الحياة اليوميّة.

5. التّهنئة والألغاز:

أقبل الشّعراء لا سيّما في العصر الأندلسي على تبادل التّهاني بواسطة الشّعر، والتّهنئة" لون من الشّعر الإخواني يتوجّه به الشّعراء إلى الملوك والأمراء والوزراء والوجهاء، راجين لهم أن يكون الأمر محلّ التّهنئة مبعثاً لسعادتهم وسرورهم". فجاء هذا النّمط من الشّعر لإيصال التّهاني والتّبريكات إلى ذوي النّفوذ والسّلطة والوجاهة. ويرى بعض الدّارسين، ومنهم شوقي ضيف، بأنّ شعر التّهاني قد نما وتطّور من الموضوعات القديمة ومنها المديح، فيقول شوقي ضيف: "وأوّل ما نقف عنده ممّا تفرّع من الموضوعات القديمة أو تولّد منها، شعر التّهاني، الذي تحوّل إليه شعر المديح في بعض جوانبه" (شوقي ضيف، 1975، ص.228).

وبالانتقال إلى العصر الأندلسي نجد حرص النّاس في ذلك العصر على تبادل التّهاني، إذ اهتمّوا بالمناسبات والأعياد لا سيّما الدّينية، ومن ضمنهم الشّعراء، فهذا هو الشّاعر ابن زمرك يهنئ حاكم غرناطة يوسف الثّالث (ت. 820هـ)، بمناسبة حلول شهر رمضان وعيد الفطر قائلاً: (ابن زمرك، 1997، ص.508) من [البسيط]

يَهْنِي زَمانكَ أعْيادٌ مَجَدَّدَةٌ مِنَ الفُتُوحِ مع الأيّام تَغْشَاهُ
واهْنَأ بِشَهْرِ صِيامٍ جاءَ زَائرُهُ مُستَنزِلاً مِنْ إلاهِ العَرشِ رُحماه
أهلَّ بِالسّعدِ فانْهَلَّتْ بِه مِنَنٌ وأوسَعَ الصُّنعَ إجمالاً وَوَفّضاهُ
أما ترى بَركاتِ الأرضِ شامِلةً وأنْعُمَ الله قد عمَّتْ بَرَايَاهُ
وعَادكَ العيدُ تَسْتحلِي موارِدَهُ ويُجْزِلُ الأجرَ والرُّحْمَى مُصَلَّاهُ
جَهَّزْتَ جيشَ دُعاءٍ فيه تَرفَعُهُ للذي المَعارِجِ والإخلاصُ رَقَّاهُ
أفضتْ فِيه من النّعماءِ أجزلَهَا وأحسنُ البِرّ ما الإحسانُ زَكَّاهُ

يظهر من الأبيات السّابقة استخدام الشّاعر لألفاظ التّهنئة والفرح: "يهني، اهنأ، بالسّعد" دلالة على سياق النّص المخصوص للبهجة والتّبريك، كما نلحظ تخصيص هذه التّهاني لوجه وحاكم وشاعر بارز من حكّام عصر الشّاعر، ألا وهو "يوسف بن يوسف بن محمد الغني بالله بن يوسف النّصري" حاكم غرناطة الثالث عشر، ونستدل من ذلك على أنّ شعر التّهاني كان أغلبه موجّه لذوي المكانة العالية. لقد التفت الشّاعر في هذه التّهنئة إلى مدح المهنّأ، بذكر محامده من فتوحٍ ونصرٍ أبلا فيه بلاء حسن، وتجهيزاً للجيش الذي أفاض بالنّعماء عليه. فتداخلت التّهنئة مع المدح والثّناء.

ولم يقتصر شعر التّهاني على التّهنئة بالأعياد الدّينيّة فحسب، بل نجد ابن زمرك اتّجة إلى التّهنئة بالمولود الجديد، حيث قدّم في إحدى قصائده التّهاني والتّبريكات بمولودٍ رُزق به السّلطان الغني بالله- محمد بن يوسف بن إسماعيل بن نصر- (ت. 793هـ) حاكم غرناطة. يقول: (ابن زمرك، 1997، ص.ص.168- 169) من [الطّويل]

هَنِيئاً هنيئاً والهَناءُ لِجَمْعِنَا بِبدْرٍ بَدَا في هَالَةِ القَصْرِ طَلِعَا
هَنِيئاً هنيئاً لِلْسُّرُوجِ فَإنّهُ يُشَرّفُ مِنْ آفاقِهِنّ المَطالِعَا
هَنِيئاً هنيئاً لِلْمَحَارِيبِ إنَّهُ سَيَبْدُو بِهالاتِ المَحارِيبِ طَالعَا
هَنِيئاً هنيئاً لِلْبُنُودِ فإنَّهُ سَيَعْقِدُهَا في مَوردِ النَّصرِ شَارعَا
هَنِيئاً هنيئاً لِلْجُنُودِ فإنَّهُ سَيَتْبَعُهَا لا زَالَ لِلحقِّ تَابِعَا
ومَا هُوَ إلّا سَيفُ نَصْرِكَ مُنْتَضًى سَتُلْفِيهِ للأعداءِ في المُلْكِ قَاطِعَا
وما هُوَ إلّا شِبْلُ مُلْكِكَ مُذْ بَدا تَرى الأُسْدَ مِنْهُ تَحْذَرُ البأسَ يَافِعَا

في هذه الأبيات يهنئ الشّاعر السّلطان الغني بالله بقدوم مولوده الجديد، فهو مثل البدر الكامل الذي طلع في قصره، وهو سيفٌ مسلولٌ للنّصر على الأعداء، وهو شبلٌ ولكنّه ملك يتمتّع بالشّجاعة

والقوّة التّي تهابها الأسود البالغة، وهنا بالغ الشّاعر أيّما مبالغة. وأيضاً يبالغ الشّاعر في هذه التّهنئة حينما جعل كلّ من السّروج والمحاريب والبنود تهنأ بهذا المولود، فالسّروج، أي: المصابيح الزّاهرة، تهنأ به؛ لأنّه يفوقها إضاءةً ومطلعاً، والمحاريب، أي: الأمكنة المرتفعة تهنأ به؛ لأنّه يظهر فوقها كالقمر الكامل. والبنود، أي: المعاهدات تهنأ به؛ لأنّه يعقدها في مكان النّصر بعد الانتصار على الأعداء. وكذلك الجنود تهنأ به؛ لأنّه ملازماً لها في السّير إلى ساحات الوغى. ومن ثمّ فشعر التّهاني بالمولود الذي قدّمه الشّاعر في هذه الأبيات كان وسيلة لمدح أبيه، وبيان محاسنه وصفاته الحميدة، والنّظر إلى المولود بأنّه سيكون أهلًا لهذه المحاسن في المستقبل، كما أنّه الأمل المرجو في تحقيق ما لم يستطع الأهل تحقيقه. ومن ثمّ فهو تعزيز للمعنى وتوثيق له من ناحيتيَ البنية والدّلالة.

وما يمكن لنا أنْ نلاحظه ونبرزه من النّاحية الأسلوبيّة ذلك التّكرار لكلمة (هَنِيئاً هنيئاً) إذ أنّ تكرارًا صوتيًّا كهذا من شأنه أن يعمل على " تشكيل نظام موسيقي ذي ميزة غنائيّة تخدم إغناء الصّورة وجعلها تتحرّك مساحة النّص بحيويّة جذّابة" (عبده، 2006، ص.153). فضلًا عن "أنّ النّسق الصّوتي والدّلالي الذي يتمّ إبرازه بفعل هذه التّقنية الأسلوبيّة يعمل على تجمع العناصر المتشابهة في النّصّ؛ لخلق موازنات صوتيّة من خلال أركام تلك الموازنات في بؤرة دلاليّة واحدة تكشف المعنى المراد" (الصميدعي، 2010، ص.203). ومن الاتّجاهات الأخرى في شعر التّهاني التّي تطرّق لها ابن زمرك- التّهنئة بالشّفاء- وذلك مثل قوله في تهنئته بالشّفاء للسّلطان الغني بالله: (ص.291) من [الوافر]

إمَامَ المُسلمينَ لَكَ البَقَاءُ وبُشْرَاكَ السّلامةُ والشّفاءُ
وهُنِّئْتَ السَّعادة في خلودٍ وللخَلْقِ الجَميعِ بِكَ الهَناءُ
فَلِلدُّنيَا بِراحتِكَ ارْتِيَاحٌ وللدِّينِ الظُّهورُ والاعْتِلاءُ
إذا مَا شِئْتَ نَصراً يا ابنَ نَصْرٍ تُبَلِّغُكَ السَّعادةُ ما تَشَاءُ

في هذه الأبيات استخدم الشّاعر ألفاظ التّهنئة والفرح بشفاء السّلطان: (لك البقاء- بشراك السّلامة- هنّئت- السّاعدة- الهناء- في خلود)، دلالة على سياق النّص المخصوص للفرح والسّرور بشفاء إمام المسلمين- السلطان الغني بالله-. وفي هذه التّهنئة التفت الشّاعر إلى مدح المهنّأ، وقد بالغ في مدحه إلى حدٍ جعل الدّنيا ترتاح به إذا كان في صحّةٍ وراحةٍ، وأنّ الدّين يظهر ويعلو به. فتداخلت التّهنئة مع المدح والثّناء.

أمّا الألغاز فهي نمط آخر من الشّعر الإخواني، وقد نظم في هذا النّمط كثير من الشّعراء لاسيّما في الحقب الأخيرة من العصر الأندلسي. والألغاز" اللّغز أصله الحفرة الملتوية يحفرها اليربوع والضّب

والفأر، لأنّها تحفر جحرها مستقيماً إلى أسفل، ثم تحفر في جانبٍ منه طريقاً، وفي الجانب الآخر طريقاً، وكذلك في الجانب الثّالث والرّابع، فإذا طلب بعضها البدوّيُ بعصاه من جانب نفق من الجانب الآخر. ثم استعملوه في الإتيان بالعبارة يدلّ ظاهرها على غير الموصوف بها، ويدلّ باطنها عليه" (الرّافعي، 2008، ص.583).

ويرى بعض الدّارسين أنّ الألغاز تبتعد عن الشّعر والعاطفة، وتقترب من الفكر والعقل، فيقول الدّكتور علي غريب بهذا الصّدد: " والألغاز لا تعتمد على إثارة المشاعر والأحاسيس، بل تتجه إلى العقل مباشرة، ومن ثم فإنها لا تمت إلى الشّعر الحقيقي بأي وشيجة، وتحتاج معرفتها وفك رموزها ومعمياتها إلى حدة الذّكاء، وسعة الأفق وسرعة الخاطر" (الرّافعي، 2008، ص.193).

وجدير بالذّكر أن عوامل عدّة قد أسهمت في ذيوع هذا اللّون من الشّعر الإخواني، لا سيّما في القرن السّادس الهجري، ومنها شغف الطّبقة العليا بها، وللتّرفيه واللّهو، فضالاً عن إثبات القدرة على نظم اللّغز شعراً، فحرصاً من الشّعراء على مجاراة الكبار، بسبب صلتهم برجال الطبقة العليا، فقد واكب الشّعراء هذا اللّون المستطرف من الشّعر (السّوداني، 1980، ص.ص.85- 86).

أمّا الشّاعر ابن زمرك فلم تخل أشعاره من الألغاز والأحاجي، فقد برع في نظم الألغاز شعراً وفكّها، لحدّة ذكائه وفهمه. وممّا قاله لغزاً في قرطاس: (ابن زمرك، 1997، ص.234) من [المجتث]

خُذْهُ كَقَلْبِكَ لَوْنًا وَصَفْحَةِ البَدْرِ صَفْحَهْ

وَاقْلِبْ وَصَحِّفْ تَجِدْهُ دَعَاكَ تَرْمُقُ صُبْحَهْ

لقد لغَّزَ الشّاعر في البيتين السّابقين للقرطاس، ويبدو أنّ لغزه بعيد عن التّعقيد والغموض، كما نلحظ بعدهما عن التّكلّف والتّصنّع، ولعلّ السّبب في ذلك هو أنّ هذا اللّغز الشّعري قد وجّه إلى عامة النّاس ولم يوجّه إلى شخص خاص، لأنّه " عند النّظر إلى الألغاز المطروحة للجميع- الألغاز العامة- فإنّها تبدو أقلّ تكلّفاً من الألغاز الموجّهة لشخص معيّن- الخاصّة-" (السّوداني، 1980، ص.277). وممّا يؤكّد أنّ هذين البيتين لم يوجّها إلى شخص معين، هو موضوع اللّغز العام: "القرطاس- الصّحيفة"، فضلاً عن كون الشّاعر من الوزراء والكتّاب في دولة بني الأحمر بغرناطة، فكان كاتباً لصاحب غرناطة السّلطان الغني بالله، وترقّى في الأعمال الكتابيّة إلى أن جعله السّلطان أمين سرّه، ومن ثمّ عيّنه متصرّفاً برسالته وحجابته.

وممّا أسهم في ابتعاد التّكلّف من شعره الملغز هو إثارة لعاطفة الأخذ والتّصفّح؛ لأنّ الموضوع الملغز يخصّ القرطاس وتصحّفه، فلا يخلو هذا اللّغز الشّعري من النّزعة الدّاعية إلى تذكّر القراءة

والاطّلاع، "خُذْهُ- وَاقْلِبْ وَصَحِّفْ". وبرع الشّاعر في تصوير القرطاس حينما شخّصه في لونه بلون قلب إنسان نظيف " خُذْهُ كَقَلْبِكَ لَوْنًا" للدّلالة على التّمسك به والمحافظة عليه، وجعل صفحته مثل صفحة البدر المضيئة " وَصَفْحَةِ البَدْرِ صَفْحَهْ" للدّلالة على التَّرْقِيبِ في تَصَفُّحِهِ. وهذ الصّورة الجملية للقرطاس تجعل الشّخص يقلّب صفحاته من غير كَلٍّ ولا مَلٍّ مع النّظر الدّائم إليه.

ولم يقتصر شعر الألغاز عند ابن زمرك على أسماء عامة من النّاس، كما لا حظنا في الشّاهد الشّعري السّابق، بل خصّص شعره للخواص من الملوك والسّلاطين، فقال يُلغز باسم سلطانٍ، يجيب فيه عن لُغزٍ في "حَنَّانٍ" من أسماء الله الحسنى: (ابن زمرك، 1997، ص.93) من [السّريع]

يَا مُشْبِهاً آباءَهُ الأكرَمِينْ حَاجَيْتَنِي باسم كَرِيمٍ مَكِينْ
إنْ أنْتَ قَدْ صَحَّفْتَهُ تُلْفِهِ صِنْفَينِ ذا مِنْ جُملَةِ العَاقِلِينْ
أو اسْمَ أُنْثَى نَجْلُ هانٍ بِهَا مِنْ جُملَةِ العُشَّاقِ والمُغْرَمِينْ
أوْ وَالداً يُعزَى لَهُ كَاتِبٌ مِنْ عَليهِ الأعْلامِ والكاتِبِينْ
أوْ وَلدًا يُكْنَى بِهِ عَالِمٌ بِمَشْرِقٍ مِنْ قُدْوَةِ المُقْرِئِينْ
أوْ جَمْعَ رَوضٍ بَاهِرٍ حُسْنُهُ أوْ جَمْعَ دَارِ الخُلْدِ لِلفَائِزِينْ

ويظهر بأنّ الشّاعر قد وجّه شعره الملغز إلى رجل من ذوي الخواص، حيث بدأ المقطوعة بالمدح والثّناء لمتلقي السّؤال واللّغز، بنداءٍ دال على التّعظيم: "يَا مُشْبِهاً آباءَهُ الأكرَمِينْ** حَاجَيْتَنِي باسم كَرِيمٍ مَكِينْ" فهو يسير على نهج آبائه في الحكم، فيتّصف بالرّحمة، والعطف، والرِّقّة، والشّفقة في حكمه. فبعد مدح متلقي اللّغز، وذكر اللّغز، يلمح الشّاعر إلى صاحب الاسم الملغز، بألفاظ دالة على المدح والثّناء والتّقدير، وذلك من خلال الإشارة إلى المكانة التّي يتمتّع بها أهل بيته في وسط المجتمع الذي يعيشون حوله، فهي مكانة تقوم على: "المحبة والألفة، والرّفعة والعظمة، والعلم". وهذه المكانة سلسلة متواصلة في أسرته ابتداءً من الأم المحبوبة والمألوفة للجميع وهي بهذه الصّفة كـ "جنان" معشوقة أبي نواس الحسن بن هاني، كما لغز بذلك في البيت الثّالث. ولغز في البيت الرّابع بالمكانة الرّفيعة والعظيمة التي يتمتّع بها الأب، ممّا جعل أشهر الكتّاب في الأندلس وهو "ابن حيان" يعزى له. وفي البيت الخامس لغز بالابن العالم الذي يكنّى في علمه بالعالم "أبو حيّان الجياني النّحوي المقرئ". كما نلاحظ في البيت الأخير بأنّه لغز بدار السّلطان الذي يجتمع فيه النّاس، تشبيهاً له بدار الخلد للفائزين وهي "الجّنات".

من هنا نستنتج من المقطوعتين الشّعريتين السّابقتين بأنّ الشّاعر ابن زمرك كان ذا ذكاء حاد وقدرة وتمكّن في إنشاء الألغاز شعراً. كما نلمس سعة علاقة الشّاعر مع عامة النّاس "الأصدقاء" ومع ذوي النّفوذ "الأمراء والسّلاطين"، إذ خصّص كلّ لغز لشريحة معيّنة.

وبناءً على ما سبق يمكن القول بأنّ الشّاعر ابن زمرك قد ولع بالإخوانيات، فنظم في أغلب أنماطها من شكوى وعتاب ومراسلة ومجاوبة وتهانٍ وألغاز، فكان شعره ولغته وأسلوبه تعبيراً صادقاً لقيم العصر وعاداته وثقافاته السّائدة.

خاتمة:

جاءت هذه الدّراسة تحت عنوان: ملامح من شعر الإخوانيات للشّاعر ابن زمرك الأندلسي الغرناطي. ومن ثمّ توصل الباحث إلى عددٍ من النتائج أهمّها:

- نظم ابن زمرك شعراً وفيراً في الشّوق والحنين، إفصاحاً عن لوعته واشتياقه لأماكن صباه ولماضيه ولأهله ولأصحابه ولأحبابه ولديارهم، فكانت العاطفة الجيّاشة الصّادقة هي الطّاغية على هذه الأشعار.
- خصّص الشّاعر قصائد العتاب والتّودّد للحكّام والفقهاء والأصدقاء، دون غيرهم من فئات المجتمع، إذ وظفّ هذا النّمط من الشّعر الرّسائلي للحفاظ على علاقات قويّة ومتينة مع ذوي السّلطة والجاه، ضماناً لحقوقه المعنويّة.
- إنّ المراسلات والمجاوبات الشّعريّة عند ابن زمرك أسهمت في تنظيم علاقاته الإخوانيّة بين الشّعراء والآخرين. وكانت تلك الرّسائل الشّعريّة قريبة إلى النثّر بأسلوب تقريري، يميل إلى لغة الحياة اليوميّة.
- غالباً ما كان شعره في التّهاني موجهاً لأصحاب السّلطان والجاه، وذوي المناصب الرّفيعة في الدولة. فحمل شعر التّهاني عنده دلالات عميقة تتيح قراءة مجتمعه من وجهات مختلفة: سياسيّة ودينيّة واجتماعيّة.
- كان الشّاعر ابن زمرك ذا ذكاء حاد وقدرة وتمكّن في إنشاء الألغاز شعراً. كما نلمس سعة علاقة الشّاعر مع عامة النّاس "الأصدقاء" ومع ذوي النّفوذ "الأمراء والسّلاطين"، إذ خصّص كلّ لغز لشريحة معيّنة.

المصادر والمراجع:

1. ابن بطوطة: محمد بن عبد الله بن بطوطة، (1987م)، تحفة النّظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، (ط1، ج1)، دار إحياء العلوم، بيروت.
2. ابن زمرك: أبو عبد الله محمد بن يوسف، (1997م)، ديوان ابن زمرك الأندلسي، (ط1) دار الغرب الإسلامي، بيروت.
3. بكري شيخ أمين: (1980م)، مطالعات في الشّعر المملوكي والعثماني، (ط3)، دار الآفاق الجديدة، بيروت.
4. الجاحظ: أبو عثمان بحر الجاحظ، (1982م)، الحنين إلى الأوطان، (ط2)، دار الرّائد العربي، بيروت.
5. الرّافعي: مصطفى صادق الرّافعي، (2008م)، تاريخ آداب العرب، (ط1)، دار ابن الحزم، بيروت.
6. زغلول: محمد زغلول سلّام، (1990م)، الأدب في العصر الأيوبي، (ط1)، منشأة المعارف المصريّة، القاهرة.
7. السّوداني: مزهر عبد السّوداني، (1980م)، الشّعر العراقي في القرن السّادس الهجري، (ط1)، دار الرّشيد للنّشر، العراق.
8. شوقي ضيف: (1975م)، تاريخ الأدب العربي- العصر العباسي الثّاني- (ط2)، دار المعارف، مصر.
9. الشّناوي: علي الغريب محمد الشّناوي، (2006م)، الإخوانيات في الشّعر الأندلسي، (ط1)، مكتبة الآداب، القاهرة.
10. الصّميدعي: جاسم محمد الصّميدعي،(2010م)، شعر الخوارج (دراسة أسلوبية)، (ط1) دار دجلة، الأردن.
11. عبده: علي محمد عبده، (2006م)، الشّعرية الأندلسية، عصر بني الأحمر أنموذجًا، (ط1) كلية التربية، جامعة الأنبار.
12. المقري: أحمد بن محمد المقري التلمساني، (1968م)، نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب وذكر وزيرها لسان الدّين بن الخطيب، (ط1، ج1)، دار صادر، بيروت.
13. الملا: محمد عثمان الملا، (1412هـ)، الإخوانيات في الشّعر العباسي، (ط1)، نادي المنطقة الشّرقية الأدبي، السّعودية.
14. الموصلي: ابن الشّعّار الموصلي، (2005م)، قلائد الجمان في فرائد شعراء شعر الزّمان، (ط1)، دار الكتب العلمية، بيروت.
15. ناصف: أميل ناصف، (1996م)، أروع ما قيل في الإخوانيات، (ط1)، دار الجيل، بيروت.